

عن الحقبة الفوغولية في الادب الروسي

نيقولاي تشرنيشيفسكي

حين نحون بصدد اصدار احكام ادبية ، فان علينا ان نصنع نصب اعيننا
مبدئين اساسيين : احدهما يهم عذات الادب بالمجتمع ومساحته ، ويهم
الثاني الحالة الراهنة لادبنا والشروط التي يتوقف عليها نموه . لقد جعل
دييلينسكي من هذين المبدئين اساسين جوهريين للنقد الروسي ، وقد
عرضهما بكل قوة جدله وطبقهما باستمرار على المهمة التي كان نجاحها
يتوقف - في الجزء الاكبر منه - على التقيد بهما بالضبط ، ومنذ زمن دييلينسكي
الى الآن لم يحصل عندها ذلك التقدم الذي تبلغ اهميته حدا تصبح معه افكار
دييلينسكي متجاوزة ، وان اولئك الذين تشغلهم الحقيقة لا زالوا يتشبثون
اليوم ، ضرورة ، بالتصورات التي كان ممثلا لها في نقدنا .

ان الاتجاهات التي توجد في صلة وثيقة مع حاجيات المجتمع ، في كل
مجالات النشاط البشري ، هي وحدها التي تستطيع الوصول الى درجة مرموقة
من التطور . وان الشيء الذي لا يضرب بجذوره في الحياة يظل ساحبا وواهنا ،
لا يملك أية دلالة تاريخية ، ولا يمارس ادنى تأثير على المجتمع . وكلنا
نعترف بهذه الحقيقة حين يتعلق الامر باتجاهات ووقائع تهم المجال المادي
الحياة العامة والاجتماعية . والامر ذاته يمكن قوله بالنسبة للرسم والنحت
والهندسة المعمارية ، وذلك لان كل شخص ، مهما تواضعت خبرته ، لا
يستطيع رفض الفكرة القائلة بأن كل فن من هذه الفنون لم يبلغ قمة تطوره
الا في علاقة وطيدة مع حاجات العصر العامة . لقد انتشر النحت عند الاغريق
لانه كان تعبيرا عن الملمح المهيمن في حياتهم ، تعبيرا عن عبادتهم المحمومة
لجمال أشكال الجسم البشري . ولم يبدع المعماري القوطي تلك الصروح
المدهشة الا لانها سمحت بتجسيد طموحات العصر الوسيط . كما أن مدرسة
الرسم الايطالية لم تنتج روائع الاعمال الا لانها كانت تعبر عن طموحات
مجتمع ينتمي الى عصر وبلد معينين ، وتتطابق مع روح عصرها ، ومع
انصهار العبادة الكلاسيكية للجسم البشري مع المطامح العلوية للعصر
الوسيطة .

اما الادب فقد كان سيئاً ، حقاً ، استثناء شاذاً لهذا القانون العام لو كان بمقدوره أن ينتج شيئاً بارزاً وهو ينفصل عن الحياة ، الا انه قد سبق واوضحنا في مقال سابق أن ذلك لم يتم . لماذا ، إذن ، لا زال هناك مدافعون عن النظرية المسماة بنظرية «الفن الخالص» (وهو فن مجهول ومستحيل) التي نطلب من الادب أن يهتم بالشكل وحده فقط ؟ ان مصدر ذلك يكمن اما في ان أنصار الفن الخالص المذكور لا يلحظون هم أنفسهم المعنى الحقيقي لطموحاتهم ، واما في انهم يريدون تضليل الآخرين بحديثهم عن هذا الفن الخالص الذي لا يعرفه احد ولا يرغب فيه قط احد ، بما في ذلك ممتحوه ودون أن نقف عند التشدد الكلامي الذي يخفون به ، عن وعي او عن غير وعي ، مطامعهم الحقيقية ، سنسعى لمعالجة الوقائع التي تكشف هذه المقاصد ، عن قرب ، والروح التي هيمنت على كتاباتهم وعلى الاعمال المصادق عليها من طرفهم ، الشيء الذي سيمكننا من رؤية انهم لا ينشغلون قط بفن خالص منفصل عن الحياة ، بل يريدون ، على العكس من ذلك ، اخضاع الادب لاتجاه واحد ، ذي مضمون «أرضي» محدد تمام التحديد ، وفعلًا ، فهناك اناس لا يهتمون بالمصالح العمومية ، ولا يحسون بغير لذاتهم وآلامهم الشخصية ، في استقلال عن المشاكل التاريخية التي يثيرها المجتمع . وان الحياة بالنسبة لهؤلاء الابيقوريين الرقيقين تظل محصورة في العالم الشعري لكل من اناكوريون وهوراس : أي تظل حديثاً مرحاً مصحوباً بأطعمة لذيفة غير وفيرة ، وبالبهجة والنساء ، - انهم في غير حاجة الى شيء آخر . وليس للامزجة من هذا النوع الا ان تضجر من كل ما يخرج عن عالم الافكار الابيقورية ؛ انها تريد من الادب بدوره الاقتصاد على المضمون الذي ينفرد به وجودهم . الا أنه لكي يخفوا تعصبهم وتشبثيتهم البالغة فانهم يتجنبون التعبير صراحة عن رغبتهم . ويتحدثون عن فن خالص ، يزعمون أنه منفصل عن اهتمامات الحياة . ومع ذلك ، ألا يشكل الغذاء الجيد والنساء والحديث اللطيف عن النساء جزءاً من وجودنا ، مثله في ذلك مثل الفقر والخطيئة ، مثل الجرائم والمطامح السامية ؟ ولو أن الشعر اقتصر على الاغاني الباخية والاحاديث الايروسية ، ألا يظل مع ذلك تعبيراً عن توجه معين في الحياة ، وتعبيراً عن أفكار محددة تمام التحديد ؟ انه سيقول لنا : «أشربوا واحبوا ، ابحثوا عن اللذة وسلوا عن أنفسكم ، دون التفكير في أي شيء آخر» ؛ سيدافع عن الابيقورية ، التي تشكل منظومة فلسفية مثلها في ذلك مثل الرواقية والافلاطونية ، المثالية أو المادية ؛ وسيكون بذلك مجرد داعية الى الابيقورية ، دون ان يكون قط تعبيراً عن فن خالص .

هذا إذن هو المآل الذي تنتهي اليه مسألة ما يسمى بالفن الخالص ؛ وإن الامر هنا لا يدور حول مناقشة ما اذا كان على الادب ان يضم نفسه في خدمة الحياة ، وأن يبث أفكاراً محددة (فهذا دور لا يمكن له ان يتخلى قط عنه،

وهو نابع من ذات ماهيته) ، وإنما فقط حول معرفة ما إذا كان عليه أن ينفحص داخل الاتجاه الابيقوري ، متجاهلا لكل ما يعتمد عن المائدة الطيبة والنسيب والاحاديث الرهيفة بين ندماء يتوج الآس رؤوسهم . وليس الجواب صعبا على كل حال . فحصر الادب داخل ابيقورية رهيبة يقود الى تقليص حدوده بشكل مضحك وغير معقول ، كما يقود الى السقوط في اكثر انواع التعصب والتشبيثية تطرفا . وسوف لن يكون الرد عليها بتشبيثية أخرى مفيدا ولا مجددا : إذ أن نبذ انصار ما يسمى بالفن الخاص لكل أفكار واتجاهات الادب الأخرى لا ينبغي ان يثير ، بالمقابل ، نبذا للاتجاه الابيقوري ، وذلك رغم ان هذا الأخير يستحق الادانة والتذخية بسبب تفاهته وابتذاله ، أكثر من أي اتجاه آخر . رياسته عادت لكل اتجاه وحيد الجانب فنحن نعتزف بأن العقليّة الابيقورية ، ما دامت مرجودة في الحياة ، لها الحق في التعبير عن نفسها ضمن الادب الذي عليه أن يشمل وجودنا برمته . الا أنه ينبغي الاعتراف أيضا بأن الابيقورية لا تستطيع ، بحق ، ان تلعب دورا مهما في غير حياة عدد ضئيل من الأشخاص المجبورين عليها بطبيعتهم ، والذين يتمتعون بشروط مادية ملائمة على نحو استثنائي ؛ والامر نفسه يمكن قوله بالنسبة للادب ، فليس للاتجاه الابيقوري ان يروق سوى لعدد محدود من العاطلين السعداء ، أما أغلبية الناس فقد بدا لها ، وسيبدو دائما ، اتجاهها تافها ، بل ومنفرا ، وإذا توقفتنا عند الزمن الحاضر فان علينا ملاحظة ان الظروف غير مواتية للابيقورية مطلقا ، وذلك لاننا نوجد الآن في عصر من الحركة (والصراع) ، لا في عصر من الركود العاطل ؛ وان الابيقورية التي هي اليوم عبارة عن انشغال أناني في العمق ، اذن غير شعري ، لتظهر في الادب الحاضر ، وبطبيعة الحال ، مرسومة بدكّة قاتلة . ان الشعور والحياة ، هو الحركة (والصراع) والانفعال ، أما الابيقورية فلا نجد لها اليوم سوى لدى الأشخاص الخاملين ، الواقعين خارج التاريخ ، الشيء الذي يفسر سبب قلة عدد شعراء الابيقورية الحالية . وإذا صح أن الصلة الوثيقة مع متطلبات العصر الطبيعية هي وحدها ما يبيت قدرا من الطاقة في فعاليات الانسان ويتوجها بالنجاح فان الابيقورية لا تستطيع ابداع أي شيء ملفت للنظر حقا في شعر عصرنا ، ويكفي في ذلك أن ننظر الى مجمل الاعمال التي انتجها انصار هذا الاتجاه الادبي : انها اعمال متصنعة ، باردة ، كتابية ومفخمة ، ومجردة تماما من أية قيمة فنية .

ان الادب يضع نفسه ، ضرورة ، في خدمة تيار معين من الافكار : وهو ناجز عن التملص من هذه الوظيفة ، التي تكمن في ذات طبيعته . وان اتباع نظرية الفن الخالص ، والذين يسعون الى جعل الفن شيئا بعيدا عن مشاغل هذا العالم ، لهم اما على خطأ ، وأما أنهم يضمرون مقاصدهم ؛ وقولهم بأن وعلى الفن أن يكون مستقلا عن الحياة لم يخدمهم قط في غير اخفاء النضال الذي يخوضونه ضد اتجاهات الادب التي لا تروقه ، وذلك للدفع بهذه الأخيرة

الى خدمة اتجاه آخر يروقههم اكثر . لقد سبق أن رأينا ما يبتغيه انصار نظرية الفن الخالص اليوم ، وانه لمن الصعب التفكير في ان مقاصدهم ستكون ذات تأثير - مهما ضؤل - على الادب ، بعد أن انكشف مدلولها الحقيقي للعيان . ان عصرنا لا يرغب قط في تكريس كل ما تبقى له للابيقورية ، كما لا يمكن للادب ان يخضع لهذا الاتجاه الضيق العقيم ، والغريب عن كل المطامح السوية لعصرنا .

(وليس بمستطاع الادب ، مثله في ذلك مثل اي نشاط اخلاقي وفكري جدير بهذا الاسم ، وبسبب ماهيته ذاتها ، الا أن يكون تعبيراً عن افكار ومطامح عصره . ولا يتعلق الامر بغير تحديد الافكار التي عليه أن يخدمها : اهي الافكار التي لا ترتبط بحياة زماننا هذا بأدنى رباط من الاهمية فتنقل الى الادب الدائر حولها طابعا قافها لا نفع فيه ، أم هي تلك التي تحدد الحركة الرئيسية للعصر ؟ والجواب بالغ البساطة : ان تيارات الادب التي ولحت تحت تأثير الافكار السوية والنشيطة والتي تلبي حاجات العصر الملحة ، هي وحدها التي تستطيع تحقيق انطلاقة لامعة . ولكل عصر مهامه التاريخية ومطامحه الخاصة به . وان حياة ومجد عصرنا ليتشكلا من مطمحين متناظرين وملتحمين ببعضهما اشد الالتحام : الذعة الانسانية والانشغال بتحسين الوضع الانساني . وبهذين الفكرتين الاساسيتين انما ترتبط كل طموحات الانسان الاخرى في هذا العصر ومنهما انما تستمد قوتها ؛ مسألة الثقافة ، ومسألة النزعة الشعبية والقومية ، ومسألة التعليم . وان التصورات الحقوقية والسياسية لا تتحرك اليوم الا بفضل هاتين الفكرتين واستنادا اليهما ؛ وبصورة عامة فان هذه التصورات لا تهم الانسان المعاصر الا بقدر ما ارتبطت بالاتجاهات الانسانية وسعت الى تحسين الوضع البشري ، وان الامر هنا لا يشبه في شيء وضع بعض العلوم التي لا تكتسب أو تفقد قيمتها تبعاً لصلاتها مع حاجات العصر المهيمنة، حقا ان باستطاعتنا ملاحظة نفس الظاهرة في ميدان الفنون : فاذا كانت حالة الرسم اليوم مرثية فان ذلك يرجع ، بالاساس ، الى عزله عن المطامح الحالية . وقد عانت الفنون الاخرى من نفس المصير تقريبا ، وذلك لاسباب مماثلة . ومن بين كل الفنون ، يحتفظ الادب وحده بقوته وقيمته ، وذلك لانه هو المهيأ لانعاش المطامح الحية لعصرنا . وان كل الكتاب الذين يزدهر بهم الادب الاوروبي الحديث يستلهمون، فعلا ودون استثناء ، من الافكار التي تحرك هذا القرن . فاعمال بيرانجي ، جورج صائد ، هاينه ، ديكنز وذاكرلي تحركها افكار انسانية وانشغال بتحسين المصير الانساني . أما الكتاب الموهوبون الذين لم يتلقح نشاطهم بهذه المطامح فقد مكثوا في الظل أو حصلوا على شهرة أدنى من مستوى موهبتهم ، دون أن يبدعوا شيئا يستحق المجد حقا . وكل قارئ يرى اليوم ، مثلا ، أن ليس ادعى للعبث من الفكرة القائلة بأن شخصا ما يدعى الكسندر

دوما (الاب) كان يتوفر على موهبة ما . سيقول كل قاري : «انه ثرثار تافه ، ورواياته خرقا ، وتفتقد ، في مجملها ، كل قيمة ، وخاصة من الناحية الجمالية» . ومع ذلك فان الطبيعة كانت قد حبت هذا الكاتب بأكبر قدر من الموهبة ، لكن بما انه ظل مصما اذنيه عن مطامح عصره ، فانه لم ينتج سوى اعمال تافهة لا شأن لها . (*)

اننا لا نستطيع ان ننزع بالقوة الهاما من شيء لا يثير فينا الى صدى . واننا لن نفهم ولن نجسد الافكار النبيلة ، السوية والسمة ، اعتمادا على الاشارة الاعتبارية لمخيلتنا ، وانما نفهمها ونجسدها استفادا الى الخصائص التي جبلت عليها طبيعتنا ، او الى تجربة الحياة او الى التفكير والعلم . وثمة اناس عاجزون عن ايلاء اهتمام صادق ومخلص لما يحدثه التطور التاريخي حولهم : ان هؤلاء الكتاب يسعون عبثا لكي يلصقوا على أوجههم قناعا مشجيا لاداس تنيرهم المشاكل المعاصرة ؛ ومهما كان الوجه الذي يأخذونه فانهم لن يجدهوا قط شيئا بارزا حقا . وعلى العكس من ذلك فان على الكتاب الذين حبتهم الطبيعة - فوق الموهبة - بقلب حي ان يسعوا للاحتفاظ في ذواتهم بتلك المزوجة الرائعة بين الموهبة والفكر ، التي تضي على ملكتهم كل قوة وكل قيمة ، وتبعث في أعمالهم الحياة والجمال . ينبغي عليهم الوعي بأن قلبهم السخي ، بأن روحهم المستتيرة تقودهم على الطريق الاوحد المستقيم نحو المجد ، وتحثهم على التحرك باتجاه التطور التاريخي ، وعلى خدمة الافكار الانسانية (humanitaire) والمساعدة في تحسين المصير البشري

ان هذا ينطبق على آداب كل البلدان ، من اسبانيا الى روسيا ومن السويد الى ايطاليا ، الا ان النشاط الادبي لكل شعب ، علاوة على الشروط العامة التي تنبع من طبيعة الموضوع ذاته ، هو نشاط يرتبط مباشرة بشروط خصوصية متوقفة على الظروف الخاصة بحياة ذلك الشعب .

(ففي البلدان التي بلغت الحياة الاجتماعية والفكرية فيها درجة عالية من التطور نجد ، ان صرح القول ، تقسيما للعمل بين مختلف شعب النشاط الفكري ، لا نعرف منه عندنا (اي التقسيم) سوى شعبة واحدة هي الادب . لهذا فان أدبنا ، وبمعزل عن اية مقارنة مع الآداب الاجنبية ، يلعب في حياتنا الفكرية دورا أهم بكثير من دور الادب الفرنسي أو الالمانى أو الانجليزى في حياة بلاده ، وهو شيء يفسر واقع أن المهام والالتزامات المطروحة عليه هي أوفر عددا ، بما لا يقارن ، من المهام والالتزامات المطروحة على أى أدب آخر . انه يكاد يكشف كل حياة الشعب الفكرية ، واذن فعليه ان يهتم بالاشياء التي أضحت في بعض البلدان مجالا لاهتمام شعب أخرى من شعب النشاط الفكرى . ان القصص القصيرة في المانيا ، مثلا ، توجه الى جمهور خاص لا

(*) الكلمات والجمل والفقرات المحصورة بين معقوفين هي كلمات وجمل وفقرات حذفتها الرقابة البصرية او حذفتها هيئة تحرير المجلة او الكاتب نفسه بسبب تلك الرقابة .

يقرا سواها ويطلق عليه اسم «الجمهور الروائي» . في حين أن الامر مخالف
لذلك عندنا : فالقصص تقرأ أيضا من طرف تلك الجمهرة من الناس التي لعلها
لم تعد تهتم بها في ألمانيا قدا ، وقد وجدت قوتا أفضل في المؤلفات العديدة
المكرسة ، خاصة ، لحياة المجتمع المعاصر . ان الادب عندنا لا زال يحتفظ
بتلك القيمة الموسوعية التي فقدتها لدى الشعوب الأكثر استنارة . ففي حين
أن الموضوعات التي عالجه ديكنز وغيره من الادباء في انجلترا هي موضوعات
تصنى لها الفلاسفة والقانونيون والصحافيون والاقتصاديون ، الخ ، بدورهم ،
نجد عندنا أن لا احد يتكلم ، غير الكتاب ، عن الأشياء التي تكون موزة وعاء
لكتاباتهم . لهذا فإن ديكنز كان بمقدوره ، ككاتب ، أن لا يجد نفسه مرغما ،
بصورة مباشرة ، على التعبير عن مطامح عصره . وذلك لان هذه الأخيرة قد
نم التعبير عنها خارج الادب ؛ في حين أن كتابنا لم يكن بمستطاعهم التمتع
بتبرير من هذا النوع ، والاحال أنه اذا كان ديكنز وذاكراري قد قررا ، مع ذلك ،
ضرورة تصني الادب لكل المسائل التي تشغل المجتمع ؛ فلا يبقى لكتاب النشر
والشعراء لدينا الا أن يستشعروا هذا الواجب ألف مرة ومرة . ان ليرمزوتوف
يتأسف على الزمان الذي كان الشعب فيه محتاجا الى شعراء في جميع قضايا
الحياة المهمة ، فيقول :

قديما ، على الايقاع المهتز لكلماتك المنفردة ،

كان الرجال يذهبون الى الحرب .

كنت تخدم الجمع ، كما القدح في الوليمة ،

كما البخور في الصلوات .

كان شعرك يحلق فوق الجمع ، روحا الهية ، وكان

صحن أفكارك النبيلة الابنية ،

يرن ، كأجراس الابراج الكنسية القديمة ،

وسط أفراح الشعب وأحزانه .

وهذا الزمان لم ينصرم بعد في روسيا . ولعل بمقدور انجلترا أن تتخطى

عن ديكنز وعن ذاكراري ، الا أننا لا نعرف ما سيكونه مصير روسيا دون غوغول .

فالشاعر والروائي عندنا لا يمكن تعويضهما أبدا . من كان بمقدوره ، سوى

نساعر ، ان يقول لروسيا ما سمعته من بوشكين ؟ من كان بمستطاعه ، سوى

روائي ، أن يردع روسيا ما علمه اياها غوغول ؟

ان هذه القيمة الموسوعية للادب الروسي هي التي ولدت وضعيته

الاصيلة ، والشروط الخاصة التي تنظم نموه وتطوره .

لقد توزعت الحياة الفكرية في ألمانيا وانجلترا الى عدة شعب مستقل

بعضها عن بعض ، وان النجادات المقبلة لشعبنا من هذه الشعب تتوقف ،

أساسا ، على ظهور عبقریات جديدة ، والحالة المرئية التي يعرفها الادب

في ألمانيا حاليا ، على سبيل المثال ، تعود فقط الى غياب كتاب

مثل ديكنز وذاكراري ، وستدوم طويلا ما لم تنجب ألمانيا كتابا عباقرة . أما

الشروط التي يتوقف عليها النمو اللاحق للادب الروسي فهي مغايرة تماما .
 انها ترتبط بالجمهور . وبمقدور الادب ان يدفع بالقراء الى نشاط فكري متزايد ،
 لكنه لا يستطيع ان يحل محلهم ولا ان يوجد دون دعمهم . ونحن لا نتحدث
 هنا عن المساعدة المادية (رغم ان وضع الادب الروسي لا يبدو باعثا على
 الرضى في هذا المجال : ففي خمس عشرة سنة لم تظهر لاعمال بوشكين سوى
 طبعتين ، لا يتجاوز مجموع نسخها عشرة آلاف) بل عن الدعم المعنوي ، ذي
 الاهمية الفائقة والذي لا يزال ، لسوء الحظ ، بالغ الضعف ، ان لم نقل تافها .
 فحين ظهرت ابيات من الشعر على صفحات مجلاتنا ، شرع الجمهور في قراءتها ،
 معتبرا المجلة التي لا تنشرها مجلة ناقصة ، لكن ، ما ان توقفت تلك الابيات
 عن الظهور ؟ ان القراء المعاصرين يهتمون قبل كل شيء بالقصص الروسية
 ظهوره حتى يجد القراء ان لا قيمة للمجلة بدونها . ان الكتاب ينشرون اليوم
 روايات عن حياة الشعب ، ويحكم الجمهور على هذا الاتجاه بأنه عظيم المنفعة
 حسن جدا . لكن ، ماذا سيقول الجمهور لو ان هذا النوع من الروايات توقف
 عن الظهور ؟ ان القراء المعاصرين يهتمون قبل كل شيء بالقصص الروسية
 القصيرة . وان روايات شاكراي الرائعة لتقرأ بقدر من النهم اقل من ذلك الذي
 نفرا به القصص الروسية القصيرة الرديئة جدا ، وحين تظهر قصة ناجحة
 حقا ، فان حماسة القراء لا تعرف حدا قط ، لكن ، ماذا سيقول جمهورنا ، في
 رأيكم ، لو ان القصص الروسية القصيرة توقفت كتابتها فجأة ؟ .

(انه سيتأسف لها في دخيلته ، الا أنه سوف لن يرفع صوته بشيء ،
 ، فعلا ، أليس بمقدورنا ان نعيش دون قصص قصيرة ، بل ودون ادب ؟ لم لا
 يكون الامر على النحو ذاته بالنسبة للخبز ؟

ان هذا وضع لا ينبغي ان يدوم . فالتواضع والرصانة صفتان حسنتان
 طبعاً . الا ان الامراط فيهما صار دوما ، كما ان تواضع الجمهور المبالغ فيه
 تواضع مشؤوم على الادب . ان الجمهور يقول : « اذا أعطيتونا شيئا فنحن
 سعداء وممتنون ، اما اذا لم تعطونا شيئا ، فماذا بمقدورنا ان نفعل ؟ » .
 ذيف يطرح هذا التساؤل الاخير : « ان نفعل ؟ » . ان على المرء ان يطالب
 والجمهور القدرة على أن يصير قوى التأثير في الادب . كما يمكن للادب
 ان يابي رغبة الجمهور . الا انه ينبغي التعبير أولا عن رغباتنا ، والا فكيف
 نعرف هذه الرغبات من طرف المقصودين بها ؟ ان الشخص الصامت يعتبر ،
 من طرف الآخرين ، شخصا لا يريد شيئا . ان علينا التعبير عن رغباتنا بقوة ،
 وبالحداح ، لكي تنتم تلبيةها ؛ اما اذا طرحناها بصوت خافت وخجل ، فمن
 سيوليها اهتماما ما ؟ وحين لا يبلغ الادب مداه الحقيقي أو حين يتهرب من
 مهمته فان الخطأ يعود دائما الى الجمهور ، واليه وحده . وليس للمجتمع الحق
 في التخاص من مسؤوليته تجاه العيوب التي يعاني منها . الا يكفي اظهار
 تزيمة صلبة وعنيدة لكي يطرح بعيدا كل النقائص ؟ لا تقولوا ان المواهب

قد انعدمت ، فهي موجودة ، لكن ماذا بمقدورها ان تعمل دون الدعم المعنوي الجمهور ؟ ولو اتفق وخطر لكم ان الادب في حاجة الى مواهب أوفر عددا واكثر التماعا ، فان هذه مستظهر لكم بقدر ما ترغبون . الا نعلم ان العباقرة لم يعدموا قط - مع ندرتهم - مجالا مفتوحا لنشاطهم ؟ ولا تقولوا ، ايضا ، ان النقد يؤدي وظيفته على نحو سيء ، وذلك لانك أنت ، جمهورنا ، من يتحمل مسؤولية ذلك . ان على النقد أن يستند الى القراء ، في الواقع ، وأن يتوقف كلية على صلاية متطلباتهم ، واذا لم تتطلبوا من النقد ، وبالحاح ، أن يؤدي وظيفته على وجهها الصحيح ، فمن أين تأتون بحقكم في مطالبته بشيء ما ؟

ولكي يندفع الادب ، بصورة لا رجعة فيها ، الى الامام ، فان على الجمهور ان يفي بحقوقه تجاهه . وما لم يتم ذلك ، فليس لكل نجاحات الادب الا أن تكون طارئة ومؤقتة .

وليس بمقدورنا قط أن نلوم جمهورنا على عدم اهتمامه بمصير الادب ، وعلى امتلاكه لاذواق ناقص ذمها . وعلى العكس من ذلك فان الحالة الفريدة لادبنا من حيث هو الفرع الأكثر حيوية من نشاطنا الروحي ، علاوة على تكوين جمهورنا - جمهور الناس المتعلمين الذين لا يهتمون ، في أمم أخرى ، الا قليلا بالادب والشعر - ؛ يجعلان الادب الروسي أدبا بثير من التحمس المحترم وسط وتعلمي الشعب قدرا أكبر من ذلك الذي تثيره آداب بلدان العالم الأخرى فليس متعلميها ، وليس ثمة ، دون شك ، جمهور يحكم على الأعمال الأدبية بنفس دقة وذكاء الجمهور الروسي . ان الانجليز لم يفتخروا ببايرون نفسه ولم يحبه بذات الدرجة التي أحب بها الشعب الروسي بوشكين وافتخر به . وام يكن نشر أعمال بايرون ، قط ، مسألة وطنية مثلما كان عليه الحال بالنسبة لنا مؤخرا حيث نشرت أعمال بوشكين وغوغول . ان هذه الوقائع تظهر اهتمام ترائنا الحي بالادب ، أما سلامة أذواقهم فقد اثبتت في مئات المناسبات ، بل وحتى دون ان نتحدث عن تثمين جمهورنا للكتاب الروس ، وهو تثمين صحيح في جملته ، يكفي النظر الى الذكاء البالغ الذي يحكم به هذا الجمهور على أعمال الكتاب الاجانب . ان الفرنسيين ما زالوا الى اليوم يعجبون بفكتور هـغو وبلامارتين ؛ لكن ، من منا يفسمهم هذا الخطأ ؟ وما زال الانجليز يضعون بولويرلين في نفس مرتبة ديكنز وشاكراي ، لكن ، من منا لا يلاحظ ذلك الاختلاف البين بين هؤلاء الكتاب ؟ وليس لنا أن نتباهى بهذا التفوق : فمصدره يكمن فقط في ان المسائل الأدبية تشتمل بصورة - تكاد تكون مطلقة - ذلك ، القسم من المجتمع الذي يمتنع ، في انجلترا أو فرنسا ، عن إيلاء اهتمام ما لهذه « السفساف » . وكيفما كان الامر ، فلا شك ان جمهورنا الحالي يمتلك خاصيتين ثمينتين الى الحد الأقصى بالنسبة لتطور الادب وهما : اهتمام متحمس بنتاجات الكتاب ، وأحكام بالغة الصواب عليها . الا ان هذا الجمهور

يفتقر الى شيء واحد : وهو الوعي (بحقوقه على الادب ، الشيء الذي يتوقف عليه نجاح هذا الفن بأكمله في نهاية الشوط . فالجمهور بطير فرحا حين يكون الادب بصحة جيدة ، أما حين تسوء هذه الاخيرة ، فان الجمهور لا يملك سوى الصمت .

في السن الذي بلغته ، ليس جيدا
أن يمتلك المرء رأيه الخاص .

لكن عفوا ، (ألا يعود تاريخنا) (✽) الى مائة وخمسين سنة ، تبعا للمعجبين باصلاح بطرس الاكبر ، والى قرابة الالفى سنة بالنسبة لدعاة السلافية ؟ فهل يظل عايينا أن نستمر في التظاهر بالتواضع ؟

وحين يترك الجمهور الادب دون دعم معنوي ، خاضعا لمشينة الحوادث المحتملة ، فانه يفقد الحق في الاندهاش من تقاباته . ان على الرأي العام أن يبرجه الادب وأن يطلب منه ، بكل حزم ، التعبير عن مصالحه ، الا ان الرأي العام يحتفظ بصمته أو ، في احسن الاحوال ، يهمهم بالفاظ يتعذر فهمها : ليس طبيعيا إذن ان الادب ، وقد فقد دعائمه الراسخة ، يظل متعلقا بالصدفة المتقلبة ويعاني من تأثير كل أنواع الآراء المسبقة ؟ ان جمهورنا يكاد يجهل كل شيء عن « كواليس » (« أسرار ») أدبنا ، في حين ان وضعيته الحالية تجعله اخرج ما يكون الى الرحمة والشفقة . ونحن لا نتحدث هنا عن دسائس الكبرياء ولا عن عمليات الثأر الدنيئة والتكتلات والمودات الشخصية ، التي نجدها في كل الانشطة البشرية والتي لا تقدر على غير تعظيم أو اذلال الاشخاص غير الموهوبين والمنتمين الى الدرجة الثانية ، الا انها تظل دون تأثير على نشاط الموهوبين الحقيقيين الذين يعرفون كيف يرتفعون بأنفسهم فوق الخصومات الدنيئة ؛ وينبغي الاعتراف ، من جهة أخرى ، بأن هؤلاء الاخيرين معروفون بالمقدر الكافي من الجمهور ، بل وبأنهم يشكلون « الكواليس » الادبية الوحيدة التي هو على علم بها . ومع ذلك فثمة علاقات وظروف أكثر أهمية ، لا يمتلك الجمهور ولو مجرد هاجس عنها ، تثقل كاهل الموهوبين دون استثناء ، وخاصة منهم الكتاب الأكثر بروزا ؛ ونحن لا نستطيع محاربة هذه الظواهر (ولا شيء أسهل من محاربتها) الا حين نواجهها بتأثير حي وفعال للرأي العام على الادب . ولكي يكون الجمهور فكرة عنها ، سوف نشير الى اثنين أو ثلاثة من ظواهر « الكواليس » هذه ، وهي ظواهر لا قيمة لها ، على وجه الاجمال ، بالمقارنة مع ظواهر أخرى .

هل يعرف جمهورنا ، مثلا ، أي مشاهير وأي اقطاب يسودون اليوم في عالم الادب ؟ ان القارئ سينفجر ضحكا لو أننا ذكرنا له أسماء يعرفها منذ زمن على انها لاشخاص قافهين وعديمي الموهبة . الا اننا سوف لن نذكر هذه الاسماء ، وذلك لان التحدث الادبي قد دخل بما فيه الكفاية في عاداتنا الى درجة أضحي مستحيلا معها التفكير دون هلع في مجازفة من هذا النوع ؛

وايس ثمة شك في أن هذه الملاحظات العامة التي نتقدم بها في خجل ستعبر عندنا تهورا مرعبا ، ونكتفي بقول ان الجمهور خطيء اذا ظن أن أكثر الاسماء احتراما من طرفه هي كذلك في عالم الادب ؛ كم عندنا من شعراء « عظام » ونشريين « بارزين » ونقاد « مسموع صوتهم » في الشعر والعروض والمقالات التي يستهزي الجمهور منها أو تدفع به الى الذوم ! ومع ذلك فانهم يعاملون اولئك الذين يتمتعون باحترام الجمهور بمنتهى الاحتقار ، وينصت الاخيريون لادصائحهم ، يستحسنون أعمالهم ، كأنهم يعتبرون انفسهم رجالا صغارا بجانب كتابنا « العظام » . أه لو ان الجمهور يعرف أمام أي قطاب يخر منبطحا عالم الادب !

ان الشاعر الموعوب يكتب قطعاً والروائي الموهوب قصصاً لا نجد فيها أفرا للروتين المبتذل ، والجمهور مفتون بهذه الاعمال ؛ لكن ، هل تعرفون رأي عالم (بفتح اللام) الادب ؟ ان كل قطاب هذا العالم يدينون الاعمال المذكورة ، وهذا لا يتم في المجلات فقط ، فنحن قد تعلمنا ان نكون متواضعين وان ننشر المجاملات المكتوبة ، وانما يتم بصيغة شفوية : كم من المآخذ ، ومن الملاحظات المملأ بالحكمة ، ينبغي على الكاتب الذي جرؤ وكان أصيلاً أن يسمعها ! لقد سبق أن اطلعنا القاريء في مقال سابق لنا على الحالة الغريبة جدا لذلك الناقد المشهور والشاعر من شعراء الزمن المنصرم الذي امتنع عن نشر قصة لغوغول في مجلته وكان يرفض التحدث عن « الهفتش » خشية أن تنخفض منزلته بسبب اعتبارات قامت على اكذوبة بمثل هذه السخافة . هذا هو نوع الآراء المتداولة في عالم الادب . وان الجمود ليهيمن على مختلف أرجائه . وتستطيعون التأكد من أنه اذا كان (الكتاب) البارزون حقاً يتمتعون باحترام ما في هذا العالم ، فایس ذلك بفضل أقطابنا ، بل رغماً عن رغباتهم ومعتقداتهم ؛ والاصداء الغامضة والبعيدة للرأي العام هي وحدها التي تدفعهم الى تقديم ننازلات للمرهية والاصالة ؛ والا فان السطحية والانتدال سيسودان الى أقصى حد في عالم الادب . أتعلمون ان هذا العالم ام يعترف بعد بغوغول ككاتب كبير؟ ان اه لذك الكتاب سيمرغونه في الوحل ، وهم مغتبطون ، لو كان ذلك بمستطاعهم ، ان الامداح التي تكتب اليوم على شرفه ليست سوى تنازل راغم للرأي العام .

قد يقول القاريء : « ان هذا يبدو غير ممكن التصديق » . وسيكون على حق تماما . وقد يضيف : « كم هي مرثية وضیعة الآراء الادبية » . وسيكون هذا فعلاً مرثياً حتى وان لم نعرض سرى لاسباب الراردة أعلاه . الا أن هذه الاخيرة ليست شيئاً بالمقارنة مع ما نصمت عنه ، مقادين بذلك جمهورنا في نواضعه . نعم ، أيها القاريء ، فیمقدر الوضعية الحالية لادبنا أن تثير نفقة أكثر الناس لا مبالاة .

فلا تتسرعوا اذن في ادانة الكاتب الروسي ؛ اذ لو أنكم على علم

بالشروط والظروف غير الملائمة التي تحيط به ، والتي عليه أن ينمي مرعبته
 ذبها ، فستدعشون لقوته لا لعجزه ؛ وبعيدا عن تأنيبه على خطاياه الثقيلة
 والمترددة ، ستفاجأون من أنه لا زال بمقدوره المشي . لا تتسرعوا في مؤاخذته
 على أخطاء أماله ، بل اتهموا انفسكم بأنفسكم في ذلك . انكم مسؤولون
 عن الوضعية المحزنة للادب الروسي : وهو لا زال ينتظر منكم ، عينا ، دعما
 معنويا قويا . ان الادب لا يشتر عوده الا اذا أصبح بإمكانه الاستناد الى
 "جمهور" ، في حين أن جمهورنا يتخلى عنه ويتركه وحده أمام مصيره . انكم
 تحكم ايها القراء ، يتوقف نمو الادب الروسي : عبروا عن عزيمتكم الصلبة
 في رؤيته ينمو ويتطور ، وعند ذلك فقط سيصبح متوفرا على امكانية حقيقية
 في النمو والتطور .

التوسع في الموضوع ، يمكن الرجوع الى المصادر التالية :

(1) - بالفرنسية :

- مجموعة الاعمال النقدية المختارة الصادرة سنة 1976 عن دار التقدم بموسكو لكل من :
 - ف. بيلينسكي ، (مع مقدمة لـ : ف. كوليشوف) .
 - ن. تشونيشفسكي ، (مع مقدمة لـ : الكسندر ليبيديف)
 - ن. دوبروليووف ، (مع مقدمة لـ : ف. جدانوف) .
 - د. بيساريف ، (مع مقدمة لـ : ي. سوروكين)
 وكذلك :
 - ف. ا. لينين ، كتابات عن الادب والفن ، دار التقدم ، موسكو ، 1969 . (وخاصة
 الصفحات : 32 ... 40)

(2) - بالعربية :

- جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، (ترجمة : توفيق ابراهيم
 سلوم - مراجعة : د. خضر زكريا) ، دار الجماهير العربية ، دمشق ، نوفمبر 1976 (الجزء 1 ،
 الفصل 10 ، ص ص : 489 ... 563) .
 - لجنة من العلماء والاكاديميين السوفييتيين تحت اشراف م. روزنتال و ب. يودين ،
 الموسوعة الفلسفية ، (ترجمة : سمير كرم - مراجعة ج. طرابيشي و ص. ج. العظم ، دار
 انطليعة ، بيروت ، اكتوبر 1974 ، (وخاصة الصفحات : 80 ، 91 ، 113 ، 181) .
 - عدد من الفلاسفة السوفييت ، الجمال في تفسيره الماركسي ، (ترجمة : يوسف حلاق -
 مراجعة اسماء صالح) ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، 1968 ، (انظر الفصل المكون ب :
 وانجمال عند الثوريين الديمقراطيين الروس) - ص ص : 97 ... 121) .
 - د. جليل جمال الدين ، بيلينسكي : مؤسس مدرسة النقد الديمقراطي الثوري الروسي ،
 (مقال منشور بمجلة قضايا عربية ، عدد 10 ، فبراير 1975 ، بيروت ، ص ص : 149 ... 157) .
 - ف. ا. لينين ، في الادب والفن ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق 1972 ، في جزئين ،
 (انظر خاصة : الجزء الاول ، ص ص : 241 ... 250) .

نقل النصوص الى العربية : مصطفى المسناوي